دفع جزية الهيكل
(مت ١٧ : ٢٤ – ٢٧)

الخوري نعمة الله الخوري

سأل جباة الضرائب بطرس إن كان معلّمه يدفع ضريبة الهيكل، فردّ بالإيجاب، واستطاع هامة الرسل أن يُسدّد ما يتوجّب عليه وعلى الربّ بعد أن طلب منه يسوع أن يسحب الإستار من فم أوّل سمكة يصطادها.

تتداخل في هذا الخبر الخاصّ بمتّى عدّة اهتمامات لاهوتيّة، فالربّ يسوع يكشف أنّه الابن المتحرّر من دفع الضريبة، وهو يتمتّع بقدرة تفوق الطبيعة لأنّه يعرف ما في أعماق الإنسان والبحار، غير أنّه في الوقت عينه فقير لا يملك حتّى درهمين يدفعهما لجباة الضرائب؛ هذا الخبر الذي يُشدّد على أولويّة بطرس، يوجّه دعوة إلى المؤمنين بالربّ يسوع كي يخضعوا للسلطات السياسيّة الحاكمة، ويقوموا بواجب دفع الضرائب دون تذمّر. سنحاول أن نستعرض هذه الاهتمامات التي تُوضح المعاني اللاهوتيّة التي يريد متّى أن يُوصلها إلى قرّائه.

١ . أولويّة بطرس

ينفرد إنجيل متّى بعرض بعض الأخبار التي تتعلّق بدور بطرس[١] المُميّز بين الرسل؛ فنحن نجده وجهًا لوجه أمام يسوع في أعجوبة السير على المياه (١٤ : ٢٨ – ٣٣)، وفي الحوار حول الطاهر والنجس (١٥ : ١٥) وفي خبر تأسيس الكنيسة على بطرس الصخرة (١٦ : ١٧ – ١٩)، وفي السؤال عن الصفح عن

(١) في خبر تأدية الجزية، يدعو يسوع هامة الرسل بإسمه الآراميّ «سمعان»، لأنّ الحادثة جرت في بلدة هذا الأخير، لذلك لا حاجة إلى الاسم اليونانيّ «كيفا» ولا إلى الاسم «بطرس».

القريب (١٨: ٢١– ٢٢)؛ كذلك الأمر، يضع المقطع الذي نعالجه، بطرس في الواجهة ويتجاهل باقي الرسل، فيبدو هامة الرسل وكأنّه يملك خبرة تخوّله أن ينقل تعاليم الربّ إلى كنيسة ما بعد القيامة.

بعد حوار بطرس مع جباة الضرائب، دخل إلى البيت[٢] حيث كان يسوع مقيمًا، وتداولَا بشأن الضرائب؛ نستطيع أن نعتبر أنّ يسوع اختار بيت بطرس في كفرناحوم ليقيم فيه، ولعلّ خبر دفع الجزية يوحي لنا أنّ الربّ كان ضيف سمعان، وهو يُعَدّ ضمن أفراد العائلة، لهذا السبب تشمل الضريبة يسوع وبطرس في آنٍ معًا. دفع يسوع الجزية عنه وعن بطرس، وهذا دليل على مكانة بطرس المُميَّزة التي يُشدّد عليها متّى أكثر من مرقس ولوقا[٣].

٢ . الإستار في فم السمكة

يُورد خبر دفع الجزية معجزة مدهشة وغريبة: سيجد سمعان في فم أوّل سمكة يصطادها إستارًا يكفي لدفع الضريبة عنه وعن المعلّم؛ نستغرب كيف تُمسك الصنّارة سمكة تحمل في فمها إستارًا! بالإضافة إلى ذلك، نلاحظ أنّ يسوع لم يصنع أبدًا أيّة معجزة لمصلحته الشخصيّة، فكيف يشذّ عن هذه القاعدة الآن؟ كذلك الأمر لا يروي لنا الخبر كيف حدثت المعجزة، ونحن لا نعلم شيئًا عن كيفية الحصول على الفضّة من فم السمكة!

في سبيل إيجاد حلٍّ لهذه التساؤلات، تصوّرت المدرسة المنطقيّة (école rationaliste) أنّ يسوع يطلب من سمعان بكلّ بساطة أن يذهب ويصطاد ويبيع

(٢) يبدو أنّ هذا البيت كان يملكه بطرس وقد أضحى لاحقًا مكانًا لتجمّع المسيحيّين. يقول متّى إنّ يسوع شفى حماة بطرس والكثير من المرضى في منزل هذا الأخير (٨: ١٤–١٧)، ويُضيف مرقس في النصّ الموازي أنّ أهل المدينة تجمّعوا كلّهم أمام الباب (مر ١: ٣٣)؛ هذه الإشارة عند مرقس تجعلنا نفترض وجود بهو كبير خارجيّ يقف فيه المؤمنون حين يضيق المكان داخل البيت؛ في هذا الإطار نستطيع أن نفهم سبب الإزدحام أمام باب المنزل الذي دلّى الرجال الأربعة المقعد من سقفه (٩: ١–٨)، وربّما كان هذا المنزل يخصّ بطرس.

(٣) لا بدّ من الإشارة هنا الى أنّ إنجيل يوحنّا لا يتطرّق إلى أولويّة بطرس، راعي الخراف والنعاج والغنم إلاّ في أخبار الظهورات بعد القيامة (يو ٢١: ١٥– ١٩).

السمك ليُسدّد ما يتوجّب عليه من الضرائب، وهكذا يدفع سمعان الضريبة من تعب يديه؛ من ناحيتها، حاولت المدرسة التشبيهيّة (école comparative) معالجة هذه المسائل، فافترضت وجود تقارب مع خبر خاتم بوليكريتيس الذي رُمِيَ في البحر، فوُجِد في بطن سمكة عجيبة (هيرودوتوس ٣: ٤٠– ٤٢)؛ غير أنّ هذا الخبر الأخير له معنى مختلف تمامًا عن السمكة التي يصطادها بطرس، ولا يظهر الشبه بين الخبرَين إلاّ على مستوى نهَم السمك[٤]؛ وتُخبرنا الروايات التي تسرد سيرة القدّيس فرنسيس كزافييه أنّ الصليب الذي أوقعه هذا القدّيس حين كان مُبحرًا في السفينة، أُعيدَ إليه بواسطة سلطعون لدى مغادرته السفينة.

مهما تعدّدت الاقتراحات لمعالجة هذه المسألة، فإنّنا لا نستطيع أن ننفي حدوث معجزة سحب الإستار من فم السمكة؛ في هذا المجال، اقترح Derrett أنّ السمكة التي اصطادها بطرس لها حجم كبير، وفي هذه الحالة، يكون الإستار عالقًا في حلقها. يريد متّى أن يُشدّد، في خبر تأدية الجزية، على معرفة يسوع الفائقة الطبيعة؛ وبالفعل، بعد انتهاء الحوار بين بطرس وجباة الضرائب، دخل هذا الأخير البيت، فسأله[٥] يسوع فورًا بشأن الضرائب، وهذا يعني أنّه علِم مضمون الحوار الذي جرى خارجًا بين بطرس والجباة؛ إنّ يسوع الذي يعرف ما في أعماق الإنسان[٦] يعرف أيضًا ما في أعماق البحار[٧]؛ إنّ الله وحده هو عالم بكلّ شيء، وهو قادر على أن يقرأ أفكار الناس. هكذا نجد التقارب بين بداية الخبر، حيث يعرف يسوع مضمون الحوار بين سمعان والجباة دون أن يكون حاضرًا، وبين نهاية الخبر، حيث يعرف يسوع أنّ سمكة ستعطي بطرس الإستار.

---

(٤) J. D. M. Derrett, «Peter's Penny, Fresh light on Mt 17, 24- 27», *Novum Testamentum* 9 (1963) 13.

(٥) يبدأ سؤال يسوع بعبارة: «ماذا يبدو لك؟» التي يتميّز بها الأسلوب المتّاويّ، وهي ترد عادة حين يتداول يسوع مع محاوريه في مسائل مهمّة؛ لا تظهر هذه العبارة أثناء الجدالات التي تعكس اختلافًا في وجهات النظر بين يسوع ومحاوريه، بل هي تلفت انتباه المستمعين إلى التعليم المهمّ الذي سيصدر عن المعلّم الإلهيّ (١٨: ١٢؛ ٢١: ٢٨؛ ٢٢: ١٧، ٤٢؛ ٢٦: ٦٦).

(٦) علم يسوع أفكار الحاضرين أثناء شفاء مقعد كفرناحوم (٩: ٤).

(٧) يقول المزمور: «السمك في البحر تحت قدميه» (مز ٨: ٦).

٣ . تأدية الضريبة

إذا قرأنا خبر دفع الجزية بتمعّن، نلاحظ أنّه لا يوجد تماسك بين أقسامه؛ فالآية ٢٤ تُشير بوضوح إلى الديدراخما، وهي عملة متداولة أثناء جمع ضريبة الهيكل، ولكن، إبتداء من آ ٢٥، يبدو يسوع وكأنّه يتكلّم عن الضريبة (تيلي) بشكل عامّ، أو عن الجزية (كينسون) الإمبراطورية بشكل خاصّ، أو عن الإستار، وهو عملة معتمدة في جمع الجزية للإمبراطوريّة الرومانيّة. كيف نستطيع أن نفهم التداخل بين ضريبة الهيكل والجزية الرومانيّة في هذا الخبر الذي نعالجه؟

٣ . أ . ضريبة هيكل أورشليم

إنّ سؤال جباة الضرائب[٨] إن كان يسوع يدفع الضريبة يتضمّن إقرارًا ضمنيًّا أنّ يسوع قد يمتنع عن دفعها، ولكنّ بطرس يؤكد العكس بدون تردّد لأنّه يعرف أنّ الربّ كان دومًا يدفع الضرائب[٩]، وهو لا يريد الإنقطاع عن الشريعة الموسويّة، بل كان يسعى دومًا ليقودها إلى الكمال.

فرضت الشريعة (خر ٣٠: ١١–١٦) على الذكور الراشدين في إسرائيل والذين تتراوح أعمارهم بين العشرين والخمسين عامًا ضريبة[١٠] إلزاميّة قدرها

(٨) تحتفظ بعض النصوص الإنجيليّة بصورة سلبيّة عن جباة الضرائب الذين يرد ذكرهم غالبًا مع الخطأة؛ يطلب يسوع من أتباعه أن يعاملوا الأخ المخطئ الذي لا يسمع للكنيسة مثل وثنيّ وجابي ضرائب؛ كذلك يطلب المعمدان من جباة الضرائب ألاّ يجمعوا أكثر ممّا فُرِض لهم (لو ٣: ١٢) وهذه إشارات ضمنيّة إلى عدم نزاهة هؤلاء الجباة.

(٩) لعلّ التأخّر عن دفع الضريبة في موعدها ناجم عن وجود يسوع وبطرس في رحلة تبشيريّة خارج كفرناحوم، مع العلم أنّ بداية الخبر تُشير الى عودة يسوع وتلاميذه إلى كفرناحوم (آ ٢٤).

(١٠) سمح الرومان بجباية ضريبة الدرهمين لمصلحة الهيكل، إمّا في الهيكل نفسه حيث كان الصيارفة يبدّلون نقود يهود الشتات، وإمّا أمام جباة مُكلّفين بالقيام بهذه المهمّة.

درهمان (ديدراخما)[١١]، والتي تساوي نصف شيكل[١٢]؛ في أيّام نحميا (نح ١٠: ٣٣–٣٤) خُفِّضت هذه الضريبة إلى ثلث شيكل بسبب فقر العائدين من السبي[١٣]. لم يكن استعمال هذه الضريبة موجَّهًا إلى الشؤون المدنيّة، بل كانت الأموال المجموعة تُقَدَّم للمساهمة في صيانة الهيكل. غير أنّ هذه الضريبة[١٤] كانت تحمل وجهة دينيّة؛ فهي تحثّ الجماعة اليهوديّة التي تعيش في الشتات على التضامن مع اليهود المقيمين[١٥] في فلسطين لكي ينشأ في ما بينهم رباط قويّ يجعلهم يشكّلون أمّة يهوديّة شاملة، وهكذا يُعبّر يهود الشتات مادّيًّا عن انتمائهم إلى الشعب المختار[١٦].

(١١) الديدراخما هي فضة يونانيّة تساوي حوالى دينارين رومانيّين، أو ما يوازي أتعاب عامل لمدّة يومين؛ هذه العملة تحمل صورة الإله الفينيقيّ ملقارت الذي يضع على رأسه إكليلاً من الغار وعلى كتفه جلد أسد، أمّا صورة النسر فهي تظهر على الوجه الثاني لهذه العملة؛ إنّ وجود هذه الأصنام على هذه العملة هو أمر مُستَهجن عند اليهود، لذلك اعتبر بعضهم أنّها غير مقبولة في الهيكل، وعليه يكون الشيكل العملة المتداوَلة عند جباة الضرائب؛ غير أنّ ماك أرثر يعتبر بالعكس أنّ الجباة كانوا يقبلون الديدراخما؛ رج:John McArthur, New Testament Commentary, *Matthew*, 1988.

(١٢) سمّت المشناة هذه الضريبة «شقاليم»، من كلمة «شِكِل» أو «شِقِل»؛ الفعل «ش ق ل» يعني: دفع ضريبة الهيكل.

(١٣) Josephus, *Ant*. 18: 312.

(١٤) نستغرب كيف يستعمل جباة الضرائب كلمة «ديدراخما» في صيغة الجمع، مع العلم أنّها قطعة واحدة من الفضة (مفردها ديدراخمون)؛ نستطيع تفسير ظهور صيغة الجمع حين نتذكّر أنّ الجباة كانوا ينادون عاليًا: «إدفعوا دراهمكم»، والمقصود إدفعوا قطعة الدرهمين المفروضة على كلٍّ منكم؛ علاوة على ذلك، نقول إنّ متّى ربما استعمل صيغة الجمع مثلما استعملها في معرض حديثه عن السبوت (١٢: ١٠) حيث المقصود السبت.

(١٥) يُفتَرَض أن يدفع يسوع الضريبة في كفرناحوم لأنّه ترك الناصرة وأقام في كفرناحوم (٤: ٢٢) التي أصبحت مدينته (٩: ١).

(١٦) كان جباة الضرائب اليهود، قبل الفصح بحوالى شهر، يُجهّزون خيامهم لجمعها من اليهود المقيمين في إسرائيل؛ أمّا اليهود المقيمون في الشتات فكانوا مُلزَمين بدفعها أثناء الحجّ في عيد العنصرة الواقع في شهر سيفان (حزيران) أو في عيد المظالّ الواقع في شهر تشري (أيلول – تشرين الأوّل). لكن هناك وُجهة نظر أخرى تعتبر أنّ الجباية كانت تتمّ قبل أعياد الفصح والعنصرة والمظالّ؛ رج : Cheqalim III, 1.

٣ . ب . الضرائب الرومانية

إنّ الحوار بين يسوع وبطرس (آ ٢٥–٢٧) يوحي لنا أنّ الخبر لا يتمحور حول موقف يسوع من دفع ضريبة الهيكل، بل يجري الحديث بالأحرى عن موقفه من الضرائب[١٧] التي فرضتها السلطة الرومانيّة المعاصرة له، والبرهان على ذلك وجود الكلمات: «الضريبة» (تيلي) و«الجزية» (كينسوس) و«الإستار» (ستاتير).

٣ . ب . ١ . تُشير كلمة «تيلي» الواردة في آ ٢٥ إلى الضرائب غير المباشرة التي تتضمّن الضرائب الجمركيّة ورسوم مداخيل الأراضي وغيرها؛ في هذا الإطار، نلاحظ أنّ جباة الضرائب[١٨]، في حوارهم مع سمعان، يستعملون الفعل «تالين» (يؤدّي) الذي اشتقّت منه كلمة «تيلي»؛ لا بدّ من الإشارة إلى أنّ

(١٧) على عتبة القرن المسيحيّ الأوّل، مرّ النظام الضرائبيّ في فلسطين بمراحل متعدّدة؛ أثناء حكم الملك هيرودس الكبير (٣٧–٤ ق. م.) كان نظام الضرائب المباشرة معمولاً به، وقد كُلِّف موظّفون رسميّون للجباية، ولكن، إبتداءً من العام ٦ ب. م. ولغاية العام ٤١، تغيّر النظام الضرائبيّ، فأضحت اليهوديّة والسامرة وإيدومية تحت سلطة الجباة الرومان، ثمّ عرفت هذه المناطق مرحلة إنتقاليّة في ظلّ حكم هيرودس أغريبّا الأوّل (بين الأعوام ٤١–٤٤)، لتعود بعدها الى رعاية الرومان المباشرة التي كانت خاضعة له سابقًا. غير أنّ واقع الحال في منطقتي الجليل وبيرية كان مختلفًا تمامًا، فقد خضعت ضرائب هاتين المنطقتين لرعاية هيرودس أنتيبّاس المباشرة (بين العامَين ٤. و٣٩)، ثمّ تولّى الجباية فيها أغريبّا الأوّل (٣٩–٤٤) وأخيرًا خضع الجليل للوصاية الرومانيّة المباشرة ابتداءً من العام ٤٤. هذا يعني أنّ جباة الضرائب الذين حاوروا سمعان كانوا تحت أمرة هيرودس أنتيبّاس. إذًا كانت الضرائب المباشرة تحت رقابة السلطة المركزيّة المتمثّلة بالحاكم أو بأمير الربع، أي ذاك الذي يُدير شؤون الجزء الرابع من الإمبراطوريّة الرومانيّة، وبالتالي كان الجباة موظّفين لدى الإدارة الرومانيّة.

(١٨) الكلمة اليونانيّة «تيلونيس» تعني: «جابي الضرائب»؛ لكنّ ترجمات العهد الجديد تفهمها بمعنى «عشّار»؛ أثناء البشارة الإنجيليّة، يبدو أنّ النظام الضرائبيّ القديم المتعلّق بجباية العشر لم يكن معمولاً به؛ فالكلمة اللاتينيّة publicanus (عشّار) يقابلها في اليونانيّة (ديموسيونيس)، وهذه الكلمة لا تظهر أبدًا في العهد الجديد .

H. G. Liddell and R. Scott, *A Greek-English Lexicon* (Oxford: Clarendon Press, 1925- 1940) s. v.; cf. Strabo, Geography 12, 3, 40.

لكن لا بُدّ من الإشارة هنا إلى أنّ عبارة «جابي الضرائب» هي بدورها ليست مطابقة تمامًا للأصل اليونانيّ (تيلونيس)، إلاّ إذا أُسنِدت إلى أشخاص يجمعون الضرائب المباشرة وغير المباشرة في آنٍ معًا.

كلمة «تيلي» لا ترد في العهد الجديد في هذا المعنى إلاّ هنا.

٣ . ب . ٢ . إنّ كلمة «كينسوس» الواردة أيضًا في آ ٢٥ تعني «الجزية»[١٩] (الضريبة المباشرة)، وهي تشير إلى إحصاء السكّان الذي كان يجري في الإمبراطوريّة الرومانيّة كلّ خمس سنوات في سبيل تحديد مداخيل الضرائب المجموعة من الشعوب التي استعبدَها الرومان.

٣ . ب . ٣ . إنّ كلمة «ستاتير» الواردة في آ ٢٧ تعني «الإستار»، وهو قطعة نقديّة تساوي أربعة دراهم (ضعف الديدراخما) وله قيمة الشيكل نفسها؛ هذا الإستار هو كافٍ لدفع ضريبة شخصين.

بعد أن استعرضنا معاني الكلمات الواردة في حوار يسوع مع سمعان، نلاحظ أنّ المعلّم الإلهيّ يماهي بين ضريبة الهيكل[٢٠] والضرائب المدفوعة للإمبراطوريّة الرومانيّة والتي كانت تُرهق كاهل البشر، فكيف نُفسّر انتقال يسوع من ضريبة الهيكل إلى الضرائب الرومانيّة؟

نستطيع أن نفهم هذا الانتقال حين نعلم أنّه، بعد تدمير الهيكل على يد تيطس عام ٧٠، أمر فسباسيانس اليهود بأن يدفعوا هذه الضريبة لدعم صيانة معبد جوبّيتر القائم في الكابّيتول في روما[٢١]؛ قال ديون كاسيوس[٢٢]: «فُرِض على اليهود أن يدفعوا ضريبة سنويّة (درهمين) لجوبّيتر الكابّيتول»؛ كذلك اعتبر المؤرّخ سواتانيوس أنّ الهدف من هذه الضريبة كان إذلال اليهود الذين اعتبروها فريضة عار، مع العلم أنّ الرومان أنشأوا إدارة خاصّة لهذا النوع من

(١٩) تقابلها في اليونانيّة كلمة «فوروس» التي استعملها بولس في رسالته إلى أهل روما حين ميّز بين الضريبة المباشرة، أي الجزية (فوروس = كينسوس)، وبين الضريبة غير المباشرة (تيلي)، فيقول: «أعطوا كلّ واحد حقّه: الجزية (فوروس) لمن له الجزية، والضريبة (تيلي) لمن له الضريبة» (رو ١٣: ٧)؛ نشير إلى أنّ كلمة «كينسوس» وردت على لسان تلاميذ الفريّسيّين والهيرودسيّين الذين سألوا يسوع إن كان يدفع الجزية لقيصر (٢٢: ١٧).

(٢٠) كان اليهود ملتزمين بجمع الضرائب، ولنا تأكيد على ذلك في التقليد الإنجيليّ حيث يحمل متّى لقب: «تيلونيس»، «جابي الضرائب» (١٠: ٣). وكان زكّا أرخي تيلونيس، «رئيس الجباة» (لو ١٩: ٢)؛ كما أنّ مرقس يذكر بيت الجباية حيث كان لاوي بن حلفا جالسًا (مر ٢: ١٤).

(٢١) يوسيفوس، **الحرب اليهوديّة**، ٧/ ٦ : ٧، ٢١٨.

(٢٢) **التاريخ الرومانيّ** ٦٥/ ٧: ٢.

الضرائب اسمها: «الضريبة اليهوديّة»[٢٣].

٤ . حرّيّة أبناء الله

تتضمّن هذه الحادثة التي جرت في كفرناحوم تعليمًا كريستولوجيًّا حول ألوهيّة الابن التي ظهرت بالاستناد إلى مثل: الملوك لا يأخذون الجزية من أبنائهم، بل من الشعوب الخاضعة لهم، وهكذا أضحى الأبناء محرَّرين من دفع الضرائب.

للوهلة الأولى، نفهم أنّ يسوع يريد أن يمتنع عن دفع الضريبة لأنّه معفىً منها، لذلك سأل بطرس إن كان ملوك الأرض[٢٤] يأخذون الضريبة من بنيهم؛ يعتبر يسوع أنّه ابن غير مُلزَم بدفع الضرائب، ولكن في أيّ معنى؟ إذا كانت الضريبة مخصّصة لهيكل أورشليم، فإنّ كلمة «الابن» ترتدي معنى يختلف عن المفهوم الذي تأخذه في حال دُفِعت الضريبة للرومان.

٤ . أ . أبناء إله هيكل أورشليم

تُوجّهنا آ ٢٤ بوضوح إلى ضريبة هيكل أورشليم (كما رأينا أعلاه)؛ في هذا الإطار، تظهر بنوّة[٢٥] يسوع الإلهيّة في الواجهة، خاصّة وأنّ الخبر يأتي بعد حدث التجلّي حيث قال الصوت السماويّ إنّ يسوع هو الابن الحبيب (١٧: ٥)؛ فقد بُنيَ الهيكل لتمجيد الله، ويُجمَع المال لصيانته، وهكذا يكون ابن الله مُعفى من دفع ضريبة الهيكل.

غير أنّ هذه البنوّة الإلهيّة لا تقتصر على يسوع فقط، بل هي تمتدّ إلى أبناء

(٢٣) Fiscus judaicus.

(٢٤) العبارة اليهوديّة «ملوك الأرض» هي متداوَلة، وتدلّ على كلّ أنواع السلطات في هذا العالم التي تتعارض مع السلطة الوحيدة لربّ السماوات (مز ٢: ٢؛ أع ٤: ٢٦؛ رؤ ١: ٥).

(٢٥) أعلن يسوع مرارًا وتكرارًا أمام مجادليه من اليهود أنّه ابن الله، وقد تشكّك خصومه كثيرًا من هذه الادّعاءات (يو ٥: ١٩–٢٣). ونلاحظ أثناء طرد الباعة من الهيكل أنّه يقول بوضوح: «لا تجعلوا من بيت أبي بيت تجارة» (يو ٣: ١٦)، وهذا يعني أنّ يسوع هو الابن الذي يقف في بيت أبيه ويُطهّره ويُغيّر طرق العبادة فيه.

كنيسته (٥: ٩؛ ٦: ٩؛ رو ٨: ١٤، ١٦، ١٩، ٢١)، والبرهان على ذلك أنّ خبر دفع الجزية يعرض إعفاء بطرس ويسوع من الضريبة في آنٍ معًا، والمثل يُشير بوضوح إلى الأبناء وليس إلى الابن، لتظهر بوضوح بنوّة التلاميذ[٢٦] الإلهيّة، ونحن نعلم أنّ بطرس يمثّل مجموعة الاثني عشر. يسوع هو ابن الله، والتلاميذ هم أبناء الله، ولكن ليس على المستوى نفسه[٢٧]؛ أضحى المسيحيّون المرتدّون من اليهوديّة فخورين لأنّهم آمنوا أنّهم أبناء الآب السماويّ، وهم الآن أحرار غير مُلزَمين بدفع الضرائب.

٤ . ب . أبناء الإمبراطور الحاكم

إذا اعتبرنا أنّ يسوع هو ابن الله المدافع عن هيكل أبيه، وأنّه غير مُلزَم بأن يدفع الضريبة لصيانته، نصطدم بصعوبة على مستوى النقد الأدبيّ تكمن في أنّ خبر دفع الجزية ينتقل من ضريبة الهيكل (آ ٢٤) إلى الضرائب المدفوعة للسلطة الرومانيّة (آ ٢٥–٢٧) (كما رأينا أعلاه)، وفي هذه الحالة لا نجد ارتباطًا في العلاقة أب– إبن بين الإمبراطوريّة الرومانيّة من جهة، وبين يسوع وتلاميذه من جهة أخرى، فكيف أضحى الابن يسوع متحرّرًا من دفع الضريبة للرومان؟

في العالم الرومانيّ المعاصر ليسوع وللكنيسة الأولى، لم يهتمّ الرومان كثيرًا باستعباد نفوس الشعوب التي أخضعوها، بل شدّدوا على فرض الضرائب، وهذه علامة تميّز الشعوب المغلوبة على أمرها عن الشعوب المنتصرة والحرّة. في هذا الإطار، تأخذ كلمة «إبن» معنىً محدّدًا؛ فهي لا تشير إلى الابن الشرعيّ أو الطبيعيّ وحسب، بل هي تمتدّ أيضًا إلى كلّ أعضاء العائلة الحاكمة التي

(٢٦) في العهد القديم، يمتدّ معنى كلمة «الابن» ليصل إلى الشعب المختار (خر ٤: ٢٢؛ تث ١٤: ١؛ ٣٢: ٢٠؛ أش ٤٣: ٦؛ ٤٥: ١١؛ حز ١٦: ٢٠–٢١؛ هو ١١: ١).

(٢٧) يعرض يوحنّا هذا الواقع حين قال القائم من الموت للمجدليّة: «إذهبي إلى إخوتي وقولي لهم: إنّي صاعد الى أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم» (يو ٢٠: ١٧؛ رج مت ٢٨: ١٠؛ رو ٨: ٢٩)؛ تجعلنا كلمة «إخوتي» نشعر بالشركة التي ستتحقّق في الإسكاتولوجيا بين يسوع والتلاميذ: سيكونون مشاركين في حالة التبنّي الإلهيّ التي نالوها من الربّ؛ ولكن لا بدّ من الإشارة إلى أنّ يسوع لا يقول: «أبانا ... إلهنا» لأنّ الله ليس أبًا للتلاميذ بالطريقة نفسها التي يكون فيها يسوع ابنًا للآب.

تضمّ الموظّفين والخَدَم إلى جانب الأبناء. وعليه يكون البنون المُحرَّرون (ايلوثيروي)[٢٨] من دفع الضرائب هم أبناء الأباطرة الرومان في الجسد، إضافة إلى الحاشية الملكيّة، مع الخَدَم والمُوظّفين، وربّما مجموعة الشعب الرومانيّ المنتصر الذي فرض الضريبة على سائر الشعوب التي خضعت له. هذه الطريقة في التحليل تضع جانبًا البنوّة الإلهيّة ليسوع والتلاميذ لتسلّط الضوء على أبناء ملوك الأرض المُحرَّرين من دفع الضرائب. هكذا توصّل الإنجيليّ الأوّل إلى النتيجة التالية: إذا كان أبناء ملوك الأرض لا يدفعون الضريبة للحفاظ على المباني الملكيّة، فإنّ ابن الله ليس بحاجة ليدفع الضريبة (سواء أكانت مُوجّهة إلى الهيكل أم إلى الرومان).

٥ . لكي لا نشكّكهم

إستعملت الأناجيل الإزائيّة كلمة «شكّك»، فضمّنتها بعض المعاني التي تدور حول محورين: الشرّ[٢٩] (الشيطان) والإيمان[٣٠] (يسوع)؛ غير أنّ كلمة «شكّك» في النصّ الذي نعالجه، تحمل معنىً مختلفًا، فهي تُشدّد على سلوك أدبيّ يرفض زرع الشكوك عند الآخرين، ونحن نجد أحيانًا هذا المعنى في الإنجيل الأوّل (٥: ٢٩–٣٠؛ ١٨: ٨–٩).

دفع يسوع وبطرس الضريبة كي لا يتشكّك معاصروه المرتبطون بالهيكل، والذين يدفعون أموالهم بمحبّة، فلن يكونوا مسرورين حين يعرفون أنّ يسوع

(٢٨) لا تظهر الصفة «مُحرّرون» (إيلوثيروي) عند الإزائيّين إلاّ في هذا الخبر؛ على مستوى الحوار حول الضريبة، الحرّ هو الذي لا يدفع الضريبة لأنّه ينتمي إلى الشعب المنتصر.

(٢٩) إنّ النصوص التي تُركّز على الشرّ لها نبرة رؤيويّة، فنلاحظ، مثلاً، أنّ تفسير مثل الزؤان (مت ١٣: ٣٦–٤١) يُلمّح إلى القوى الشيطانيّة التي تسعى الى زرع الزؤان في العالم (رج أيضًا: ١٨: ٧)، كذلك لعب بطرس (١٦: ٢٣) الدور نفسه الذي لعبه إبليس حين حاول أن يُبعد يسوع عن مُخطّط الآب (٤: ١٠).

(٣٠) النصوص التي تُركّز على الإيمان بيسوع هي عزيزة على قلب اليهو–مسيحيّين الذين أرادوا أن يُشدّدوا على غباوة إسرائيل، فوجدوا عند أشعيا (٨: ١٤–١٥) حجر العثرة الذي سيتحطّم عليه الإسرائيليّون؛ لا شكّ أنّ المسيح هو حجر العثرة هذا (٢١: ٤٢–٤٣)، لذلك انبرى بولس يقول بوضوح: «المسيح عثرة لليهود» (١ كو ١: ٢٣).

يمتنع عن تنفيذ تعليمات سفر الخروج حول واجب صيانة الهيكل؛ هذا الامتناع يجعل المسيحيّين ينقطعون عن ارتباطهم بالهيكل بسبب رفضهم الخضوع لفرائض وشرائع الديانة اليهوديّة. يتحاشى يسوع أن يتشكّك محاوروه إذا اعتبروه مثل الغيورين الذين امتنعوا عن دفع هذه الضريبة سنويًّا، واكتفوا بدفعها مرّة في كلّ العمر، وهو في الوقت عينه يتحاشى أن يتشكّك اليهود الأتقياء الذين يسهرون بدقّة على تنفيذ ما تطلبه منهم الشريعة.

يعطي خبر دفع الجزية المسيحيّين الأساس المنطقيّ اللاهوتيّ الذي يعفيهم من دفع الضريبة، ولكنّه، في الوقت عينه، يرسم لهم استراتيجيّة حكيمة تلزمهم بدفع هذه الضريبة كي لا يتشكّك الآخرون.

٦ . الخضوع للسلطات المحلّية

لا تساعدنا النصوص الإنجيليّة على تحديد موقف يسوع من السلطة السياسيّة بشكل عامّ، ومن الإمبراطوريّة الرومانيّة بشكل خاصّ؛ أثناء بشارته العلنيّة، تهجّم الربّ على عظماء هذا العالم دون أن يدّعي أنّ سلطته تحلّ محلّهم (لو ٤: ٥–٦)، وفي الوقت عينه لم يتهجّم على الإمبراطور ولا على الملك هيرودس أنتيبّاس[٣١] الذي كان يريد قتله، بل اكتفى بالإشارة إلى أنّه لا شيء يمنعه من إتمام رسالته (لو ١٣: ٣١–٣٢).

أورد متّى، جابي الضرائب قديمًا، خبر دفع الجزية لكي يحثّ كنيسته على دفع الضرائب المتوجّبة عليها؛ فالربّ يسوع هو سيّد الهيكل (١٢: ٦)، وهو معفى من الضريبة، ولكنّه، بالرغم من ذلك، دفع ما يتوجّب عليه، وهكذا يجب أن يقتدي المسيحيّون بمعلّمهم. في هذا الخصوص نذكر بعض النصوص التي تُثير مسألة موقف الكنيسة تجاه الضرائب:

(٣١) حكم هذا الملك على الجليل وعبر الأردن (لو ٩: ٧–٩؛ ١٣: ٣١–٣٢؛ ٢٣: ٧–١٢) من السنة ٤ ق. م. حتّى السنة ٣٩ ب. م. ؛ يُسَمَّى «أمير رُبع» للتمييز بينه وبين أبيه الملك هيرودس الكبير (لو ١: ١٥).

٦ . أ . نصب تلاميذ الفرّيسيّين والهيرودسيّون فخًا ليسوع حين سألوه عن جواز دفع الجزية لقيصر (مت ٢٢: ١٥–٢٢)، فإذا رفض دفعها سيظهر معاديًا للرومان، وإن وافق سيعتبره اليهود خائنًا لإسرائيل؛ إنّ جواب يسوع واضح: أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله، لأنّه لا تُوجَد عداوة بينهما، بل هناك إمكانيّة تعايش بين الإمبراطوريّة والجماعة اليهوديّة أو المسيحيّة.

٦ . ب . يقول بولس إلى أهل روما: «أدّوا للجميع حقوقهم، الجزية لمن له الجزية» (رو ١٣: ٦– ٧).

٦ . ج . يطلب بولس من تلميذه تيطس أن يُذكِّر كنيسته بضرورة الخضوع للسلطات والحكّام (تي ٣: ١).

باختصار نقول: لا نجد في إنجيل متّى إشارة إلى التنافر بين المسيحيّة والإمبراطوريّة الرومانيّة، بل نشعر بجوّ إيجابيّ تجاه السلطات، فالمسيحيّون كانوا صادقين مع السلطة الرومانيّة[٣٢].

خاتمة

يدور منطق المقطوعة التي عالجناها حول الاعتراف بيسوع أنّه ابن الله، وهذه الألوهيّة تصل إلى أتباعه: إنّ أبناء الملك الحقيقيّين، أي أبناء الملكوت، الذين يعترفون أنّ يسوع هو الابن الحبيب هم متحرّرون من دفع الضرائب، فالربّ يحرّرهم ويجعلهم أبناء الله. هذا النصّ يعني أنّ يسوع (وفي ما بعد تلاميذه) أراد أن يخضع للشريعة الدينيّة المرتبطة بالهيكل، وللشريعة السياسيّة المرتبطة بالإمبراطوريّة الرومانيّة، ولكنّه في الوقت عينه يعتبر أنّه متحرّر من هذه الالتزامات بسبب بنوّته الإلهيّة. هذا المقطع من الإنجيل يجعل المؤمنين يمتنعون عن المطالبة بحقوقهم اللاهوتيّة المتعلّقة ببنوّة يسوع الإلهيّة، وفي الوقت نفسه يُجنّب الانقطاع بينهم وبين السلطات الدينيّة أو السياسيّة.

(٣٢) يشذّ عن هذه القاعدة كتاب الرؤيا الذي يضعنا في أجواء صراع بين الإمبراطوريّة والكنيسة المُضطَهَدة.

Bibliographie

CARTER Edward J., «Toll and Tribute; a Political Reading of Matthew 17: 24- 27; *JSNT* 25 (2002-2003) 413-431.

CARTER Warren, «Paying the Tax to Rome as Subversive Praxis, Mt 17: 24- 27»; *JSNT* 76 (1999) 3-31.

GARLAND D.E., *The Temple Tax in Matthew 17: 24-27 and the Principle of not Causing Offense* – D. R. BAUER – M. A. POWEL (ed.) Tresaures New and Old 1996, 69-98.

DERRETT J. D. M., «Peter's Penny, Fresh Light on Mt 17, 24-27», *Novum Testamentum* 9 (1963) 1-15.

MONTEFIORE H., «Jesus and the Temple Tax», *NTS* 11(1964-65) 66-71.

DONAHUE J., Tax Collectors and Sinners. An Attempt at Identification», *Cath. Bibl. Quart.* (1971) 39-61.

MANGONI Maria, «L'episodio del tribute al tempio», *Biblica* 2005; 833. 157-165.

CHILTON Bruce, «A Coin of Three Realms» (Mt 17: 24- 27) Jesus in Context», *AGAJ* 39 (1997) 183.

HUMBERT A., «Essai d'une théologie du scandale», *Biblica* 35 (1954) 1-28.